ركاب عربة المترو

لا أدري هل هو القدر أم النصيب أم التوقيت المتأخر الذي جعل عربة المترو غير مزدحمة في تلك الليلة الباردة من ليالي شهر يناير، نعم لم تكن هناك مقاعد شاغرة، لكن الواقفين لم يكن يتجاوز عددهم الثلاثة، وفي عرف قوانين وقواعد المترو فهذا يفيد بأن العربة خالية، احتراق بعض مصابيح الإنارة أضفى على الوجوه بعض الغموض، ما جعل العربة أكثر رهبة، ذلك الصمت الذي كان بمثابة اللغة الرسمية الوحيدة التي يجيدها الجميع... على غير العادة.

فور انغلاق أبواب العربة وقفت هي، سيدة يتضح من نغمات صوتها أنها قد اقتربت من خريفها الخامس، لم أكن أستطيع تحديد عمرها الحقيقي من ملامحها، ليس لأنها كانت تعطيني ظهرها عندما وقفت، بل لأنها عندما استدارت لتواجه ركاب عربة المترو بما فيهم أنا وجدت وجهها مغطى، هي سيدة منتقبة، حركتها البطيئة ليست بسبب وزنها الذى يتخطى تقريبًا الـ 120 كيلوجرام، على ما يبدو أنها تشعر بإرهاق شديد، ملابسها المهلهلة تدل على حالة اقتصادية متردية للغاية.

حول عنقها كانت تعلق حقيبة غريبة الشكل، مصنوعة يدويًا من بواقي أقمشة مختلفة الشكل واللون والخامة والحجم، كأنها قصاقيص الذكريات، في أول الأمر اعتقدت أن السيدة قد علقت الحقيبة على هذا النحو كحل بسيط للإرهاق البادي عليها نتيجة عملها طوال اليوم، فالحاجة أم الإختراع، كما أنه كان واضحًا أن الحقيبة مليئة بشيء ما، وربما كانت ثقيلة، بعد ثانية واحدة وكإجابة قاطعة لكثرة الأفكار المتلاحقة علمت سبب تعليقها هكذا، السيدة كانت تدخل يديها الاثنتين في الحقيبة لتخرج كل يد حاملة ورقة مطبوع عليها بعض أدعية الصباح والمساء لتبدأ في توزيعها على ركاب العربة، بعض الركاب كان يحاول التظاهر بالنوم... أو بعدم الاستسلام له.

رغم ثقل حركتها الواضح من صوت احتكاك قدميها بأرضية العربة، إلا أن يديها كانتا تتحركان بسرعة، تناقض عجيب وكأن يديها وقدميها ينتميان إلى جسدين مختلفين، أحدهما نشيط متماسك، والآخر سيسقط مغشيًا عليه بعد دقائق، أما سرعة يديها فهي مرغمة على ذلك، لا لشيء، فقط لكي تتمكن من جمع ما وزعت قبل أن يقف بنا المترو في المحطة القادمة، فيختلط الحابل بالنابل، وتضيع الأوراق ومعها مصدر رزقها الوحيد، أما بطء قدميها فهي تبذل أقصى طاقتها، لكن العمر له أحكامه، والإجهاد له حدوده، وصلت إليّ، وضعت الورقة على ساقي وانصرفت في اتجاه الراكب الجالس بجواري... والذي كان منشغلاً بالقراءة.

أمسكت الورقة بيدي، نظرت لها خطفًا، ثم تحركت بنظري تجاه تلك السيدة، مازالت تكمل عملية التوزيع، من يرفض أخذ الورقة منها تتركه فورًا دون جدال وتنتقل إلى الراكب المجاور له، خليط عجيب تجمّع في مكان واحد، اختلاف مستوى المعيشة بين الركاب كان أمرًا واضحًا يمكن تمييزه بالعين المجردة، أما هيئة كل فرد منهم فكانت تعطي انطباعًا -قريبًا من الصواب- عن طريقة التفكير أو الأسلوب المتبع لإدارة شؤون الحياة، في النهاية ومع كل تلك الاختلافات سواء كانت فكرية أو اجتماعية أو دينية الجميع كان ينتظرهم مستقبل واحد، بعدما جمعتهم الظروف في عربة واحدة، تنقلهم جميعًا إلى مكان واحد، المحطة القادمة، إذا قدر للمترو الوصول.

في أثناء عملية التوزيع لم تكن السيدة تنبس ببنت شفة، لم تقل حتى ما هو ثمن تلك الورقة، لم تقل شيئًا على الإطلاق، كأنها اكتفت بما قالته عند وقوفها أول مرة لتلفت انتباه الجميع، أو لتكسب تعاطفهم، أو أنها كانت تحمس نفسها، أو ربما هي العادة ليس أكثر، المهم أنها بعد عبارة "ساعدوني ربنا يساعدكم" لم تخرج عنها أي كلمة أخرى، سؤال بدأ يتسلسل إلى عقلي في صمت وسكون مراعيًا رهبة المكان، ما هو السر في أن تلك السيدة لا تتحدث إلى أحد؟؟ هل يرجع ذلك إلى إرهاقها طوال اليوم، أم في عدم الرغبة في الحديث بوجه عام، أم تقديرها لضيق الوقت والذي قد يكون عدوها اللدود، أم أنها تعلم أن نظرات عينيها المنكسرتين وهيئتها الرثة أبلغ من أي كلام يمكن أن يقال.

البعض أرجع لها الورقة ومعها بعض النقود كنوع من الصدقة، رغم محاولة إخفاء النقود إلا أنه أمكن تمييزها بسهولة بسبب حركة اليد في إرجاع الورقة، البعض الآخر اشتروا الورقة ودفعوا ثمنها كنوع من التعاطف، ذلك الثمن الذي لم تعلنه يومًا، تلك الفئة لم تكن تحاول إخفاء النقود، آخرون أرجعوا الورقة فقط كنوع من عدم الاهتمام أو عدم التصديق، يبدو أن شعور اللامبالاة قد أصبح متحكمًا في تصرفاتهم، العجيب أنه في أثناء عمليتيّ التوزيع والجمع لم تكن السيدة تفرق بين أحد، فالكل كان بالنسبة لها سواسية، الكل كان بالنسبة لها مصريون، الكل كان بالنسبة لها ركاب عربة مترو... ليس إلا.